مكيف هوائي

سعد روان / الجزائر

كانت عائشة تراقب أولادها و هم يلعبون بالماء، فالجو حار جدا اليوم، بل إنه منذ دخول شهر جوان و الحرارة في ازدياد مستمر، الكل يعاني في فصل الصيف، علمت عائشة ذلك من التلفزيون الذي تضعه على خزانتها العتيقة كمذياع تكسر بأخباره عزلتها، إن درجة الحرارة قد فاقت الأربعين، أما في الصحراء أين تقيم فكلام آخر، حيث يبتديء حظر التجوال في شوارع المدينة و محلاتها منذ الساعة العاشرة صباحا، و يستمر إلى السادسة مساء، فقد كانت درجة الحرارة تتجاوز الخمسين، لكن ما كان يزرع الحيرة في نفس عائشة تلك المذيعة الجميلة لأحوال الطقس، عندما تقدم أرقاما مغلوطة عن درجة الحرارة في الصحراء، فعائشة ليست جاهلة بالقدر الذي لا تستطيع أن تميّز فيه الفرق بين درجات الحرارة بين الشمال بجباله وشواطئه و الجنوب بصحرائه الجافة، أيعقل في عز الصيف أن تكون درجة الحرارة متساوية أو كما تدعيه تلك المذيعة المتذاكية.

لم يعد الحال مطاق لهذه المرأة الأربعينية، التي تتحمل في كل صيف ما لا يمكن تحمله، فكانت كلما التقت بزوجها الخمسيني البائس، إلّا و فاتحته بكلامها :

- آه... يا زوجي العزيز... متى سيكون لنا 'كليماتيزور'[1] كما كل الناس.

كان عامر الذي تأخذه الساعات الأولى من الصباح إلى العمل، لا تعيده إلّا على شمس حارقة تتوسط كبد السماء، و كعادته كان يحتمي بمظلة صنعت من أوراق جريد النخيل على شكل قبعة الرأس، أصبحت الآن رمادية تماما من شدة حرارة الشمس، و قد تحطمت جنباتها و بليت سعفاتها، أمّا الرجل فلا يزال يحتفظ بزي السبعينيات في لباسه الذي يرتديه كل صباح و هو يحمل معدات العمل، فقد كانت له طاولة صغيرة، و مطرقة و مقص و مجموعة إبر متفاوتة الطول، و مسامير مختلفة الأشكال، و علبة غراء و إسطوانة لف عليها خيط أسود، أعتقد أنكم خمنتم من يكون، نعم إنه كذلك... إسكافي بمدخول ضعيف، في الحقيقة إن رأيته سيذكرك بزيه هذا و سحنته التي أصبحت سمراء من لفح ألسنة 'الشهيلي'[2] خاصة حينما يرتدي قبعته، بالممثل الأمريكي 'كلينتون إيستوود' في فيلمه الخالد (غير مغفور)

---

[1] كليماتيزور : جهاز المكيف الهوائي.

[2] غير مغفور له: فلم أمريكي عن رعاة البقر صدر عام 1992.

إنتظر قليلا .....ربما حياتهم هذه تعادل في بؤسها و شقائها حياة تلك الحقبة في صحراء رعاة البقر، حسن... لم أفكر في الأمر من قبل، أم هل الزمن يستنسخ نفسه في عدة أمكنة من العالم، ربما... لكن الشيء الأكيد الذي في ذهن عامر و يؤمن به الجميع، أن الزمن لا عقارب له في هذه الصحراء اللعينة.

-أتعلمين يا امرأة... لن أسامح جدي في أمر واحد فقط.

- ماذا تقول يا رجل.. ما هذا الكلام.

- لماذا استقر جدي في هذه القفار الخالية من الصحراء... لا أدري ما كان يدور في خلده حينما تمتد عيناه على طول الكثبان الرملية الكئيبة... إن كان جدي لم يصنع في نفسه و نسله الخير، فهل ننتظر من غيره أن يغدق علينا بالخيرات.

كانت هذه المدينة الصحراوية منذ دخول شهر جوان، لا ترى فيها إلا السيارات ذات القاطرة و الشاحنات محملة بأثاث و حقائب، فالكل يعتزم الرحيل إلى أحد الأقارب في المدن الشمالية الباردة، أو إلى منازل يتم كراؤها لمدة فصل الصيف، طبعا... هذا لمن

أسعفه الحظ و كان بمقدوره ماديا الفرار، ليس كحال عامر المسكين و زوجته البائسة، فعائشة التي كانت تأتي إليها جاراتها لتودعنها كل بداية صيف و لا تراهن إلا في بداية الخريف، فمنهن من كانت توصيها على بيتها، و منهن من كانت تستأمنها عن عنزاتها أو دجاجاتها أو غير ذلك حتى تعدن، فكانت تتجرع غصتها في صمت كل أيام الصيف الحارة، خاصة حينما تنهشها العزلة، فالبيوت أغلبها أصبحت خاوية من أهلها تماما، حتى الصبية المزعجين في الشوارع أصبحت تحن إلى ضوضائهم عندما ترى أبناءها قد لزموا البيت من غير لعب كعادتهم.

كان كل شيء يلتهب، فالسماء تلتهب كأنها أصبحت كلها الشمس، و الأرض تلتهب بما فيها، فالشوارع التي تكسوها الرمال طوال العام أصبحت مرتعا للسراب وحده فقط، حتى هذه الجدران صار يتسلقها السراب، ربما لم تسمع بهذا في حياتك، فإن كان السراب يصنع البحيرات على الأرض، فإنه يصنع الشلالات على الجدران، أو ما يقارب ذلك... لا أدري فإن الحديث عن حرارة الصحراء و حده كفيل أن يصنع السراب في أفكاري.

رجع عامر إلى بيته هذه المرة مبكرا على غير عادته، دخل الغرفة كي يبشر زوجته عائشة مبتسما، حينها كان الأولاد كعادتهم يمرحون بأكياس مملوءة بالماء، حيث يتقاذفونها في كل مكان، و عائشة تراقبهم بحزن.

- قد اشتريت لك يا ابنة العم 'كليماتيزور'، و قد جاء معي عامل الصيانة ليركبه.

- يوييويووووووووو (زغرودة طويلة).

بعدما انتهى عامل الصيانة من عمله و هم بالانصراف، كانت كل مدخرات عامر قد انصرفت معه، بل و بعض الدين عليه من صاحب محل الأجهزة الكهرومنزلية.

حينما شغل عامر المكيف، بعدما أحكم غلق الباب و النافذة، كان الكل يغرق في الصمت، حتى القطة و الدجاجة البيضاء اللتان كانتا لا تفارقان أرضية الغرفة الندية لاذتا بالصمت، وحده كان صوت مروحة المكيف يعزف لحن النعيم، كأنه نافذة من نوافذ الجنة فتحت فجأة على أهل الشقاء في جهنم، الكل يتحسس ذلك النسيم البارد الذي كان يتسلل باحتشام إلى الغرفة العتيقة، كان النسيم يتوزع على مساحة الغرفة بالعدل بحركة شفراته الطويلة كأنها أشرعة من السماء، و كانت كل الأعين على المصباح الأزرق الصغير الباهت، الذي يزين المكيف من الأعلى حيث تشكل على هيأة رقم خمسة و عشرين (25).

لا أدري كم ساد الصمت بينهم حينها، ربما لساعة أو أكثر، ثم دخل الجميع في دوامة عميقة عقيمة من الجدال.

- من أين يأتي هذا النسيم البارد؟

فصار الكل يدلي بتحليله لهذه المعجزة في الصحراء، إلى أن تسلل النعاس إلى الغرفة و طاف عن الجميع بسحره، فاستسلموا إلى النوم في أول قيلولة تحسب على أهل من الجنة.